النشاط السياسي للَّيدي إِيستر ستانهوب في بلاد الشام1810-1839م

م.د.محمود صالح سعيد *

تاريخ التقديم: 2010/10/11 تاريخ القبول: 5 /2011/1

المقدمـــة

لم يفتأ الشرق على مدى القرون يجتذب الآلاف من الرّحالة الغربيين، ومنهم السياح والتّجار والجغرافيون والأدباء والرسامون وحتى الجواسيس، وهؤلاء هاموا بالشرق وعشقوا حياته لما حواه من أسرار مغرية ومغامرات مثيرة دفعتهم لسبر أغواره واكتشاف غرائبه عن كثب. وفي هذا البحث محاولة لتسليط الضوء على سيدة انكليزية اهتمّت بالشرق وقررت العيش بين أكنافه ما بقي من حياتها تاركة حياة الغرب والمركز الارستقراطي الذي كانت عليه في ديارها، في تجربة قلّ مثيلها. هذه السيدة هي إِيستر لوسي ستانهوب (Hester. L. Stanhope)(1776–1839) التي عاشت في بلاد الشام لأكثر من تسع وعشرين عاماً، في إحدى المناطق البعيدة في جبل لبنان، محاولة البحث عن دور سياسي متميز في المنطقة.

ونظراً للدور الكبير الذي قامت به في الشرق فقد استلهم كتاب ورحالة ومفكرون كثيرون منهم:لامارتين وباريس وهنري بوردو، صورا فريدة لهذه المرأة، التي حكم حياتها الغرور والعناد واتسمت بالصلابة والطموح، جعلها محط أنظار معظم الرحالة الذين زاروا بلاد الشام، فلا عجب قول الشاعر والسياسي الفرنسي لامارتين عنها بأنها:" أسم كبير تلفه الشهرة في الشرق ويكتنفه الغموض والحيرة في الغرب". فلم يعرفها الغرب بالقدر نفسه الذي عرفها به الشرق وذلك حصيلة إقامة دامت نحو ثلاثة عقود من الزمان شهدت فيها حياتها كثيراً من التحولات

* قسم التأريخ / كلية الآداب/ جامعة الموصل.

والتغيرات ساهمت في تشكيل الكثير من أنساقها فلم تكن بعيدة عن مشاريع الغرب في المنطقة.

لقد عكس دورها في الشرق بدايات مرحلة جديدة تبلورت فيه مشاريع التجزئة الاستعمارية في المشرق العربي على يد مؤسسات تجارية ودينية وسياسية أوربية دفعت الكثير من الشخصيات إلى لعب دور سياسي لتحقيق جزء من هذه المشاريع من أجل مكاسب سياسية واقتصادية ودينية.

إن أهمية هذا البحث تصب في تحقيق هدف رئيسي هو :الكشف عن الأهمية التاريخية لنشاط الليدي ستانهوب في بلاد الشام ودورها السياسي في المنطقة لاسيما جبل لبنان. وقد قُسِّمَ البحث إلى ثلاثة محاور رئيسية:تناول المحور الأول نشأة الليدي أيستر ستانهوب وتكوينها السياسي والمحور الثاني تناول رحلتها ونشاطها السياسي في الشرق العربي أما المحور الثالث فقد تم تخصيصه لمسالة استقرارها في جبل لبنان ونشاطها بهذا الخصوص.

كان لشخصيتها وذكائها اثر في أن تصبح أمينة أسرار خالها السير وليم بت الأصغر(Sir. William Pitt) (1803-1806م)، رئيس وزراء بريطانيا ومهندس سياستها ومعاصر نابليون بونابرت حتى مطلع القرن التاسع عشر، وهي في سن الثالثة والعشرون، فقد كانت لها كلمة مسموعة في البلاط الملكي البريطاني ولدى الأوساط السياسية في لندن إلا أن موت خالها المفاجئ عام 1806م أفقدها فرص الترقي السياسي، فكرهت البقاء في لندن وقررت البحث عن مكان لها في بلاد الشام تؤدي فيه دوراً لم يكن لأحد توقعه في ظل ظروف وتطورات صعبة للغاية.

أولا/ نشأة الليدي إيستر ستانهوب وتكوينها السياسي

ولدت الليدي[1] إيستر لوسي ستانهوب في12 آذار / مارس عام 1776م من عائلة أرستقراطية في انكلترا، في مزرعة شيفننغ (Chevening) في مقاطعة كنت (Kent) في انكلترا.

أبوها تشارلس ستانهوب (Charles Stanhope)، لورد ماهون (Mahon)، وأمها إيستر بت(Hester Pitt) ليدي شاثام(Lady of Chatham) الشقيقة الكبرى المفضّلة لرئيس الوزراء البريطاني وليم بت الأصغر (1759–1806)[2].

أُرسلت إيستر، وهي كبرى بنات لورد ماهون[3]، عام 1800م للعيش عند جدتها السيدة إيستر بت كونتيسة شاثام (Chatham) في مقاطعة بيرتن جنوب

---

(1) الليدي:لقب تشريفي انكليزي خاص بالسيدات من الطبقة الارستقراطية يقابل لقب لورد عند الرجال من الطبقة الارستقراطية. منير بعلبكي، المورد (بيروت، 1977) ص510.

(2) الإبن الأصغر لـ ايرل شاثام(Earl of Chatham) أصبح وليم بت محامياً عام 1780م وعضواً في البرلمان عام 1781م ووزيراً للخزانة عام 1782م وفي عام 1783م أصبح رئيساً لحكومة أقلية وحصل في انتخابات عام 1784م على الأغلبية وشكّل الحكومة، حقق تغييرات أساسية في أنظمة التعرفة الجمركية والأنظمة المالية وأدخل العديد من القوانين وانصرف إلى الاهتمام بحملات وراء البحار أما سياسته تجاه فرنسا النابليونية فقد شكل الائتلاف الثلاثي مع روسيا والنمسا لكن انهيار التحالف دمر رغبته في الحياة. توفي في كانون الثاني/ يناير 1806م. آلان بالمر:موسوعة التأريخ الحديث 1789– 1945، ترجمة سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين، ج2، (بغداد، 1992) ص184–185.
The Dictionary of national Biography (London,1969) p. 1233.

(3) كانت إيستر اكبر إخوتها الخمسة فقد أنجب والدها ثلاث بنات من زواجه الأول من أيستر بت وثلاثة أبناء من زواجه الثاني من لويزا كرنفيل(Louisa Grenville)عقب وفاة زوجته الأولى.
Catherine Traverso,"Lady Hester Stanhope",Literary Encyclopedia,http:// www. litency. com

شرق إنكلترا حتى عام 1803م عندما قررت الانتقال للعيش مع خالها وليم بت، رئيس الوزراء، الذي كان أعزباً[1] واحتاج إلى مسؤولة عن استقبال ضيوفه، فكانت الليدي إيستر ستانهوب تساعد خالها في الترحيب بالضيوف. وكانت تضفي على اللقاء والمقابلات جمالها المهيب وذلاقة لسانها مما أثّر في سطوع شخصيتها وبروزها السياسي في اللقاءات، كانت بمثابة السكرتيرة الخاصة لوليم بت، من اجل ذلك كان من الطبيعي أن تتأثر إيستر بالبيئة الارستقراطية التي عاشتها ومن ثم انعكس ذلك على شخصيتها وسلوكها[2].

ومن اجل تسليط مزيد من الضوء حول طبيعة حياتها والظروف التي عاشتها نؤكد أن إيستر لم تحصل بشكل حقيقي على حنان الوالدين، فقد توفيت والدتها وهي صغيرة وكان أبوها لورد ماهون مشغولاً دائماً بمشاكل مجلس اللوردات، الذي كان عضواً فيه ولم يكن يملك من الوقت كفاية للعناية بابنته الكبرى ورعايتها فاكتفى بإبعادها إلى الريف لتعيش وحيدة مع خادماتها حتى عام 1800م دون توجيه ورعاية كافيين.

أثّرت هذه الحالة على شخصيتها فأخذت طباعها الجافة والحادة بالظهور وازدادت عجرفتها، حتى أنها رفضت الخضوع لطلب والدها في تلقي تربية على أعمال الفلاحة عندما كانت تعيش في الريف، وأخيراً تركت المنزل الريفي وهربت لوحدها ملتجئة عند خالها السير وليم بت، الذي أيدها ودعم قرارها[3].

---

(1) يروى عن بت أنه عرض عليه الزواج من ابنة وزير المالية الفرنسي جاك نيكر(1776-1781م) إلا أنه أبى ورفض رفضاً قاطعاً وأجاب:" لقد تزوجت وطني". بول هنري بوردو، ساحرة الشرق، الليدي إيستر ستانهوب في الشرق، ترجمة أزهار متوج ومحمد وليد الجلاد(دار الملاح، دمشق، 1992) ص43. وعن جاك نيكر(Jac Nicker) ينظر كارلتون هيز، التأريخ الأوربي الحديث1789-1914، ترجمة فاضل حسين (الموصل، 1987) ص11.

(2) يوسف إبراهيم يزبك، مجلة أوراق لبنانية، المجلد الأول، (الحازمية، 1983) ص175.

(3) مجلة كونستلاسيون "حين تحدث الليدي ستانهوب العالم العربي"، العدد 46، شباط، 1952، بحث منشور في كتاب:بوردو، المصدر السابق، ص8.

قررت إِيستر العيش عند جدتها ليدي شاثام في بيرتن بنسنت، ومنذ هذه اللحظة أخذت شخصيتها تتمتع باستقلالية واضحة وبرز تحديها للأوامر ورفضها الخضوع لطلب والدها العودة إلى الريف بشكل سافر، بقيت الليدي إيستر ستانهوب عند جدتها حتى عام 1803م[1].

قررت الليدي ستانهوب عام 1803م، الانتقال للعيش عند خالها، وهناك، أكسبت حياتها خبرة لا يستهان بها في المجال السياسي وكوّنت علاقات واسعة مع الأوساط السياسية في بريطانيا أثرت بشكل كبير في تكوينها السياسي وترسخت لديها القناعة بأهمية دورها ومكانتها السياسية في بريطانيا. وكانت صلابة بت وعناده من ابرز الصفات التي اكتسبتها من خالها حتى أن الملك جورج الثالث(1738– 1820م) ملك انكلترا أعجب بشخصيتها وقال لخالها مازحاً:"صار بوسعنا أن نستغني بها عنك"[2].

أما خالها وليم بت فكان يقول عنها:" إني أتركها تفعل ما تريد، إذ أنها إذا قررت أن تخدع الشيطان فإنها لاشك قادرة على ذلك". واعتادت الليدي أن تعقب على هذه القصة عندما كانت ترويها بقولها:" وسأقدر على ذلك"[3].

أصبحت الليدي ستانهوب في عهد وزارة خالها تترأس موائد السفراء والأمراء، الذين بالغوا في تملقها، وكانوا يسألونها المشورة في قضايا لا تفقه منها شيئاَ، كما كانت تقلّد الضباط رتبهم وتتحدث مع الوزراء وتوفق بين الآراء المتعارضة وتضع توقيعها على أكثر من مرسوم باسم خالها تحت علمه وبصره[4].

كانت سياسة بريطانيا تجاه الدولة العثمانية آنذاك تقوم على أساس معارضة السياسة الروسية مع الدولة العثمانية وكان وليم بت يرى أن الدفاع عن البوسفور

---

(1) المصدر نفسه، ص22.

(2) أميل خوري وعادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي(بيروت، 1960) ج1، ص179؛ اغناطيوس طنوس الخوري، مصطفى أغا بربر، حاكم طرابلس واللاذقية 1767-1834 (طرابلس، 1985) ص151.

(3) George Paston,Little memoirs of the nineteenth century (London,1902)

(4) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص9-10.

هو دفاع عن الهند[1] ولعل هذا ما زاد من حماستها في البحث عن دور سياسي في الدولة العثمانية عقب وفاة خالها وما عانته من إقصاء نتيجة تولي خصومه إدارة الحكومة فحاولت أن تبحث عن دور لها في المشرق العربي علها تجده بعد أن فقدته في بريطانيا[2].

حصلت الليدي ستانهوب بناءاً على وصية خالها عقب وفاته في 30 كانون الثاني/ يناير 1806م، على راتبه التقاعدي والبالغ /1200/ جنيه إسترليني في السنة وهو مبلغ كبير كان له اثر كبير في تغيير مسار حياتها وقرارها الرحلة إلى الشرق[3].

لم تحتمل الليدي ستانهوب العيش طويلاً في لندن فقد كرهت تقاليد المجتمع الأرستقراطي هناك ولم تحتمل العيش وسطه فقررت المكوث في مقاطعة ويلز Wales لمدة من الزمن لكن سرعان ما استاءت من الحياة الهادئة والرتيبة فقررت السفر، فقد صعب عليها أن تبقى دون لعب دور سياسي بعد أن وجدت أبواب السياسة مغلقة في وجهها. في حين تشير بعض الروايات أن قرارها جاء عقب وفاة أحب إخوتها على قلبها المدعو تشارلس ستانهوب، الذي قُتل في إحدى المعارك الشرسة في إسبانيا بين الانكليز والفرنسيين ودفن هناك[4] فقررت الذهاب

(1) خوري وإسماعيل، المصدر السابق، ج1، ص32.

(2) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص10.

(3) شكّلت وفاة خالها صدمة رهيبة عند الليدي ستانهوب ولم يخلف من شئ سوى لائحة ديون طويلة ولكن نواب من المحافظين والأحرار رق قلبهم وصوتوا على منح الليدي معاشه التقاعدي بدلاً من تخصيصه لسداد ديونه. مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص10؛ Encyclopedia of Britanica (U. S. A,1966) vol. 21,p. 312.

(4) بوردو، المصدر السابق، ص45.

برحلة بحرية طويلة إلى الشرق لتنسى هذا الهم[1]. ويبدو أنه لم يكن يدر بخلدها أن هذه الرحلة ستكون طويلة وأنها لن تعود إلى بلدها.

ولكن ثمة سؤال يتبادر إلى الذهن. هل أن محاولتها البحث عن دور سياسي خارج بريطانيا كان هدفاً شخصياً ومبنياً على طموح ذاتي أم كان مشروعاً سياسياً بريطانياً حاولت أن تكون جزءاً منه؟ في الواقع تم وصف هذه السيدة بأوصاف عديدة خصوصاً الأشخاص الذين تعاملوا معها والذين كتبوا عنها أو قابلوها، وكان ثمة وصف متفق عليه من قبل الكثير منهم هو أنها سيدة "غريبة الأطوار"[2].

فقد وجد بعض الكتاب عندها ميل إلى الغرور والعظمة يصل إلى حد الجنون[3]، في حين يشير عالم الاجتماع العراقي المعروف علي الوردي في وصفه لحياتها بأنها "امرأة لا تخلوا سيرتها من طرافة وشذوذ"[4].

ولاشك أن ثمة ظروفاً موضوعية أثرت في سلوكها دفعتها إلى القيام بتصرفات وجدها الكثير من الناس أنها تتسم بالغرابة، ولكن الظن يميل إلى أن تراجع مكانتها السياسية في بريطانيا عقب وفاة خالها اثّر بشكل كبير على سلوكها وجعلها تتصرف بشكل غريب لكنها في الواقع لم تكن تعتقد بذلك بل أرادت أن تبرهن على أهميتها وأهمية دورها السياسي من خلال ما كانت تنوي القيام به عقب

---

(1) كان أخوها الشاب برتبة جنرال قتل في اسبانيا إبان الصراع البريطاني الفرنسي في اسبانيا. الفونس دي لامارتين، مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق، ترجمة جمال شيحة وماري طوق (الكويت، 2006) ص161؛

The Dictionary of national Biography,op. cit,p. 1232.

(2) الخوري، المصدر السابق، ص151. تجدر الإشارة أي أن هذه الصفة (غريبة الأطوار) لم تكن هي الوحيدة في عائلتها التي تتصف بها. فقد لوحظ أن هذه الصفة موجودة عند بعض أفراد عائلتها المقربين مثل جدها لأبيها لورد شاثام وجدها لأمها الكونت ستانهوب الثاني. بوردو، المصدر السابق، ص20-21.

(3) رائد خمار، "رفات ليدي انكليزية تثير أزمة للسفارة البريطانية في بيروت"مجلة عربيات، بيروت، العدد(40)، السنة 2001، ص3.

(4) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث، ج2 (بغداد، 2009)، ص39.

قرارها الرحيل إلى الشرق. لذا يميل البحث إلى الإقرار بان محاولتها البحث عن دور سياسي خارج بلادها كان بدافع شخصي بحت وبعيد عن مشاريع بريطانيا في الشرق، وان كان يبدو انه يصب في مصلحة بريطانيا بطريق غير مباشر إذ نرى في دورها ونشاطها في الشرق اثراً واضحاً في خدمة المصالح البريطانية في المنطقة لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبه عملاء بريطانيا من أمثال تشرشل و الجنرال وود[1].

ثانياً / رحلتها ونشاطها السياسي في الشرق العربي

1- تحديات الرحلة:

عاشت الليدي ستانهوب أربع سنوات بعد وفاة خالها بعيدة عن الحياة السياسية في بريطانيا، مرّت خلالها بحياةٍ كئيبة رتيبة لا تُطاق. فبعد أن كانت لا تملك وقتاً لنفسها وتعيش في قصر يضج بالنشاط والأخبار ومجريات الأحداث السياسية في العالم أصبحت وحيدة وبعيدة عن مصدر القرار السياسي. عندها قررت القيام برحلة إلى الشرق علها تجد مجالاً يرضي طموحها السياسي خصوصاً وان الشرق أضحى مكاناً مركزياً تتصارع فيه القوى الأوربية الكبرى للاستحواذ على مناطق النفوذ.

تركت الليدي ستانهوب إنكلترا في العاشر من شباط / فبراير 1810م متجةً صوب الشرق على متن فرقاطة _ سفينة حربية شراعية_ تدعى جيسون (Jayson) عبر المحيط الأطلسي ولم يكن احد يعرف أين وجهتها بالتحديد، وكانت عائلتها قلقة عليها فقررت إرسال من يرافقها فاختارت الطبيب لويس مريون(Lewis meryon)، الذي كُلّف بالسهر على صحتها خلال الرحلة، والذي

---

(1) مصطفى الخالدي و عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية (صيدا- بيروت، 1964) ص154؛

Lewis; N. N.:"Churchul of Lebanon" The Middle East studies,Vol XL(Nendeln,Liechtenstein,1953). P. 217-223.

أصبح فيما بعد كاتب سيرتها والمصدر الرئيس للمعلومات عنها. كما اصطحبت معها أيضاً خادمتها المخلصة السيدة فري(Frey) التي سترعاها وتلبي حاجاتها أثناء الرحلة(1).

اتجهت الرحلة إلى مضيق جبل طارق، ونزلت في اسبانيا في دير اتخذه الحاكم البريطاني دار إقامة. وهناك استحوذت على إعجاب العديد من الشخصيات البريطانية منهم السير ميشيل بروس(Bruce) الذي بهره جمالها وحماستها فطلب منها أن تصطحبه معها في الرحلة. كما استحوذت على إعجاب الشاعر الانكليزي لورد جورج بايرون (Bairon) (1788–1824م) عندما التقته في أثينا(2).

كانت الليدي ستانهوب ترغب بزيارة فرنسا وايطاليا لولا الحروب النابليونية (نسبة إلى الجنرال نابليون بونابرت) التي كانت السبب في منعها من النزول إلى فرنسا وتدهور العلاقات البريطانية الفرنسية، رغم أن عائلة الليدي وخاصة والدها كان من أبرز المؤيدين للثورة الفرنسية(3).

قررت الليدي ستانهوب إكمال رحلتها إلى الاراضي العثمانية في الشرق والتي وفّرت ملاذاً آمناً وبديلاً للرحلة. غادرت إسبانيا باتجاه أثينا ومن هناك

---

(1) بوردو، المصدر السابق، ص47.

(2) أقامت الليدي ستانهوب مدة في أثينا زارت خلالها المدن القديمة كورنث(Corinth) وكنكري(Kenkri) كما حولت منزلها المؤقت إلى منتدى ترتاده كل مساء جماعة مختارة من النخب وكان الشاعر بايرون ضمن هذه الجماعة. مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص11. المنجد في اللغة والأعلام (بيروت، 1986) ص158. وتجدر الإشارة أن بايرون ولورد ستانهوب تطوعا بعد ذلك في جيش الثوار اليوناني ضد القوات العثمانية في عام 1822م. خوري وإسماعيل، المصدر السابق، ج2، ص22.

Memoirs of the Lady Hester Stanhope,as related by herself in conversation with her physician (London,1845) vol. 2,p. 218-219

(3) إن الحرب مع نابليون منعت السياح البريطانيين من ارتياد أماكن سياحتهم المعهودة في أوربا فيما كانت الأراضي العثمانية تقدم بديلاً مهماً. باسمة عطوي "قمقم ألغازها ومغامراتها فتح بعد 165 عاماً، نثر أخير لرماد الليدي ستانهوب في جون" جريدة المستقبل، بيروت، العدد (1628) في 25، حزيران، 2004م، ص7

وصلت استانبول في 16 تشرين الأول / أكتوبر 1810م ونزلت في حي بيرا(1). ثم انتقلت إلى فيلا(villa) أنيقة قرب البوسفور وهناك زارها ضيوف كثيرون منهم السيد تايلر(Tailor)، الذي وصل استانبول قادماً من مصر وبلاد الشام، وقد جمعت منه معلومات مفيدة عن تلك البلاد استفادت منها أثناء رحلتها. كما التقت السفير البريطاني في استانبول ستراتفورد كاننج(Stratford Canning)(2)، وكانت على وفاق تام معه، ساعدها كثيراً طيلة مدة إقامتها في استانبول. بقيت الليدي ستانهوب بضعة شهور هناك ثم قررت الإعلان عن وجهتها(3).

إن السؤال الذي يبرز الآن لماذا هذا الكتمان وعدم الإعلان عن الوجهة الحقيقية للرحلة؟ هل كانت تخفي شيئاً أم كانت متوجسة من أحد؟ خصوصاً وان هذه الفترة كانت تشهد تطورات سياسية وعسكرية واقتصادية خطيرة في أوربا من جراء الصراع بين الإمبراطورية الفرنسية والقوى الأوربية المعادية للثورة الفرنسية.

---

(1) وهو الاسم القديم لحي بيوغلو في استانبول يقع على الضفة الشمالية من القرن الذهبي ويقطنه الأجانب في الغالب. بوردو، المصدر السابق، ص62.

(2) ولد في لندن 1786م، درس في كامبردج، قضى معظم حياته الوظيفية في استانبول، كان مسؤولاً عن المصالح البريطانية لمدة أربعة وعشرين عاماً، 1810-1814، 1824-1829، 1841-1845م، 1847-1858م، لم يشك العثمانيون في نواياه تجاههم. توفي عام 1880م، يعتقد معاصروه أنّه حرّض على حرب القرم عام 1853م، كان مستشاراً غير رسمي للسلطان العثماني، عبد المجيد (1839-1861م) حتّى لقّب " سلطان تركيا غير المتوّج". آلان بالمر:موسوعة التأريخ الحديث 1789- 1945، المصدر السابق، ج2، (بغداد، 1992) ص301-302؛

The Dictionary of National Biography,OP. Cit,p. 198.

(3) بوردو، المصدر السابق، ص65.

كانت الإمبراطورية الفرنسية تفرض سيطرتها على أوربا وكانت تفرض على بريطانيا تحديدا حصاراً اقتصادياً عُرف بـ "سياسة الحصار القاري"[(1)] وكانت أي سفينة بريطانية تبحر من أي ميناء بريطاني تتعرض للقصف والتدمير من قبل السفن الفرنسية، وبعد ذلك بات من الضروري توخي الحذر والكتمان في الرحلة. ومع هذا فإن القناصل الفرنسيين في الدولة العثمانية كانوا يراقبون كل التحركات البريطانية ويسجلونها ويبعثوها إلى حكوماتهم. لذا كانوا على علم برحلة الليدي ستانهوب إلى الشرق. وقد كتب القنصل الفرنسي في أثينا فرانسوا بوكفيل F. Buckfeil في 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1810م قائلاً:" إن اليونان حالياً هي قبلة الانكليز، يُهرعون إليها للتخلص من سأمهم. فلسنا نشاهد هنا سوى لوردات وأمراء، ولكن ما لم نكن نتوقعه هو رؤية امرأة عبهرة[أي امرأة عظيمة الخلق مع الجمال] في الأربعين من عمرها قريبة السيد بيت، أصيبت بحب القديم وحب الشهرة. ويلازمها طبيب وغلامان"[(2)]. وهذا مؤشر واضح على أن رحلة الليدي ستانهوب كانت مرصودة عند الحكومة الفرنسية.

كما أن هناك سبباً آخر وراء هذا الكتمان لم تشر إليه أغلب المصادر وهو أنها كانت على علم مسبق بكنز دفين في عسقلان وأنها أخفت ذلك حتى وصلت استانبول وهناك اتفقت مع الحكومة العثمانية بأن تتعهد بإخراجه مقابل إصدار فرمان يسهل لها عملها ورحلتها. إن هذه الرواية هي الوحيدة التي لم تذكرها المصادر باستثناء إبراهيم العورة[(3)] رئيس كتاب ديوان الإيالة وصاحب كتاب تأريخ ولاية سليمان باشا، فضلاً عن مذكراتها وهذا الأمر يوضح لنا بعض

(1) الحصار القاري:هو مجمل الإجراءات التي اتخذها نابليون بونابرت بين العامين 1806 و 1808م لمنع موانئ القارة الأوربية من ممارسة التجارة مع بريطانيا وذلك من اجل القضاء على البحرية البريطانية. روبرت بالمر، تأريخ العالم الحديث، أوربا من 1740– 1815م، ترجمة حسن علي الذنون (بغداد، 1964) ج2، ص273–279.

(2) بوردو، المصدر السابق، ص59.

(3) إبراهيم العورة، تأريخ ولاية سليمان باشا العادل (مطبعة دير المخلص، صيدا، 1936) ص191–192.

الغموض الذي شاب رحلة الليدي ستانهوب إلى الشرق. ولعله السبب نفسه في أن تحظى الليدي ستانهوب الرعاية الكثيرة من الحكومة العثمانية في استانبول والولاة في المشرق العربي.

واجهت الليدي ستانهوب صعوبات جمة عقب قرارها التوجه إلى القاهرة. ففي نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر غادرت استانبول وتعرضت سفينتها إلى عاصفة قوية أغرقتها بالقرب من جزيرة رودس[1]، فقدت فيها كل أغراضها حتى ملابسها وبقيت هناك بدون طعام أو مأوى ثلاثين ساعة اضطرت أن تستعير خلالها ملابس شرقية، رافضةً ارتداء الملابس النسائية الشرقية (الحجاب) ومفضّلة عليها العباءة والعمامة والنعال[2].

قررت الليدي ستانهوب مجدداً القيام برحلتها، غير أن فقدانها لممتلكاتها جعل من مسالة تمويل الرحلة شيئاً أساسياً لابد منه. وهنا لابد من طرح مسألة تمويل الرحلة ورعايتها وتوفير المستلزمات الضرورية لها. تظهر عدة فرضيات تبدو مقبولة ومن أقربها فرضية مفادها أنها اعتمدت في التمويل على مصدرين:الأول راتبها التقاعدي البالغ الفي ومائتي جنيه إسترليني والثاني من ميشال بروس الشاب الغني الذي كان عاشقاً لها والذي يتمتع بمركز مالي ممتاز، والذي يجعلنا نرجحه في هذه الفرضية ما وُصف من قبل أحد المصادر بالقول:" أنه كان أبن أحد الأغنياء. . وأنه كان مرافقاً وعاشقاً وممولاً"[3]. بهذه الأموال والفرمان الذي يسهل مهمتها حصلت الليدي ستانهوب مجدداً على الأمل في استكمال الرحلة إلى الشرق.

(1) وهي إحدى جزر الأرخبيل اليوناني تقع بالقرب من الساحل الغربي الجنوبي من الدولة العثمانية في جانبها الآسيوي، كانت تابعة للدولة العثمانية قبل أن احتلها الايطاليون عام 1912 ثم أصبحت لليونان عام 1947م. المنجد في اللغة والأعلام، المصدر السابق، ص312.

(2) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص12.

(3) بوردو، المصدر السابق، ص153.

2- رحلتها إلى مصر وَصِلَتُها بالوالي محمد علي باشا:

لم تيأس الليدي ستانهوب من صعاب وعقبات الرحلة، استعدت مجدداً واتجهت إلى القاهرة بعد حصولها على مساعدة من البحرية البريطانية، حيث أقلتها الفرقاطة ساليست إلى ميناء الإسكندرية في الأول من شباط / فبراير 1812م، ومن هناك توجهت إلى القاهرة[1]. استقبلهم المقيم الانكليزي هناك العقيد ميسيت(Messit) برعاية ولطف وزودهم ببعض النصائح في اللياقة والتعامل مع المصريين.

وفي القاهرة التقت والي مصر محمد علي باشا (1805-1848م)، ولكونها ابنة أخت رئيس الوزراء البريطاني، استقبلت باحترام لائق لمدة ساعة[2]، لكن المصادر لم تخبرنا ما جرى من حوار وما دار من نقاشات بين الاثنين.

يبدو أن الليدي ستانهوب أرادت اطلاع الوالي على سبب زيارتها وترجو أن يتم تسهيل مهمتها خصوصاً وان محمد علي باشا يعد من ابرز الولاة في الولايات العربية وان الحصول على دعمه ورعايته يشكل سبباً إضافياً مهماً للحصول على تسهيلات كبيرة من حكام المنطقة.

قامت الليدي ستانهوب أثناء مكوثها في القاهرة بمساعدة بعض الأمراء المماليك الذين نجوا من المذبحة التي نفذها محمد علي باشا بحقهم عام 1811م[3]، وقدمت بعض المساعدات إلى احد قادة المماليك الناجين من المذبحة

---

(1) المصدر نفسه، ص74-75.

(2) حيدر احمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، القسم الثالث (بيروت، 1969) ص582.

(3) تعرف تأريخ ياً بـ "مذبحة القلعة"، سببها أن محمد علي باشا كان لا يثق بالمماليك الذين أطاح بملكهم، فعزم على القضاء عليهم وانتهز فرصة توجه قوات عسكرية مصرية إلى الحجاز للتصدي للحركة الوهابية، فدعاهم للاحتفال بتوديع القوات المصرية في آذار/ مارس عام 1811م في القلعة ولما اجتمعوا أمر بإغلاق الأبواب وقضى عليهم وكانوا نحو أربعمائة شخص. للتفاصيل:عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي (القاهرة، 1947) ص111-121؛ محمد صبري، تأريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث (القاهرة، 1996)ص36.

والمدعو إسماعيل بك[1]. وكتبت إلى السفير البريطاني في استانبول كاننج تطلب منه المساعدة وان يقوم بجمع المال لتسهيل سفر الأمير إسماعيل بك إلى لندن أو استانبول[2]. من جهة ثانية قررت زيارة أرامل زعماء المماليك جهاراً[3]، للاطلاع على أحوالهن. ولاشك أن هذا التصرف لا يخفى هدفه على أحد من حيث كونها تسعى إلى كسبهم والاطلاع على أوضاعهم والتعرف على الأحوال العامة للبلاد والمشاركة في التفاصيل العامة للأحداث في مسعىً لتشكيل أنصار وأعوان لها يساعدونها في مشاريعها السياسية المقبلة.

غير أن هذه التصرفات لم تكن لتُغضب محمد علي باشا كونه مدركاً إلى مدى الضعف الذي أصبح عليه المماليك بعد أن استأصل شأفتهم ولم يعد بإمكانهم منافسته على الزعامة في مصر أو المنطقة. لم تنتهِ صلات الليدي ستانهوب بالوالي محمد علي باشا عند هذا الحد، بل سرعان ما طغت أحداث سياسية خطيرة أدت فيها دوراً خطيراً لعل ابرز هذه الأحداث قرار الوالي محمد علي باشا احتلال بلاد الشام عام 1831م بجيش ضم ثلاثين ألفا، سيطر فيها على مدن بيروت ودمشق وحلب وأنطاكية[4].

---

(1) أحد الناجين من مذبحة القلعة عبر الصحراء ووصل القدس بعد معاناة من الأدلاء الذين قادوه وسلبوه معظم ما كان معه وراح يعيش على الصدقات، وقد أعلن محمد علي عن مكافأة لمن يأتيه برأسه ثم تغاضى عنه بعد أن وقّع والي عكا سليمان باشا معاهدة صلح مع الوالي محمد علي باشا. بوردو، المصدر السابق، ص87. وقد ورد اسمه عند جرجي زيدان باسم (أمين بك)، ينظر:جرجي زيدان، تأريخ مصر الحديث، ج2 (القاهرة، 1999)، ص160.

(2) بوردو، المصدر السابق، ص87.

(3) المصدر نفسه، ص78.

(4) لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام 1831-1841م(القاهرة، 1999) ص42-44

فبعد مغادرتها مصر عام 1813م وتوجهها إلى بلاد الشام وقرارها الاستقرار فيه، أصبح لديها طموحات سياسية كبيرة لم تشأ أن ينافسها في ذلك احد ولا حتى محمد علي باشا، خصوصاً وأنها عملت طوال مدة إقامتها في بلاد الشام- وهي نحو ثمانية عشر سنة- على تعزيز مكانتها وتوطيد صلاتها مع حكام المنطقة أملاً بلعب دور سياسي فيه، لذا كان موقفها مغايراً لما كانت عليه أثناء لقاءها الأول معه. فقررت عام1832م استضافة العديد من أتباع والي صيدا عبد الله باشا(1818- 1832م) بعد سقوط عكا بيد جيش إبراهيم باشا[1] ورفضت بشدة تسليمهم معلنة عن موقفها بشكل صريح قائلة:" على الباشا أن يأخذ روحها قبل أن تسلمه واحداً من هؤلاء"[2]. وتطور هذا الموقف عام 1837م عندما قررت تنظيم مقاومة مسلحة، اتخذت من قلعتها في جبل لبنان، منطلقاً لشن الهجوم على القوات المصرية. وأخذت بتحريض الدروز وإيقاد نار الكره ضد القوات المصرية حتى أن القائد إبراهيم باشا كتب إلى والده يشكو منها أمر الشكوى وأرسل يقول:" لقيت من شرها ما جاوز مقاومة الجيوش العثمانية بأسرها"[3].

كان من بين الأسباب التي تذرعت بها الليدي ستانهوب أثناء المواجهات مع الحكومة المصرية مسألة التجنيد الإلزامي الذي أدخله إبراهيم باشا بناءً على

(1) هو نجل محمد علي باشا ويقال ابنه بالتبني، كان رجل سياسة وحرب، ولد في قولة عام 1789م، قاد كافة حملات محمد علي باشا العسكرية في الجزيرة العربية (1816-1819م) و اليونان (1824-1827م) وبلاد الشام(1831-1839م) كان الحاكم الفعلي في بلاد الشام وتولى حكم مصر في نيسان/ أبريل عام 1848م بسبب عجز أبيه، توفي في تشرين الثاني/ أكتوبر من السنة نفسها. الجمعية الملكية للدراسات التأريخ ية:ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا 1848-1948م، مجموعة أبحاث ودراسات لتأريخ ه تنشرها الجمعية بمناسبة إنقضاء مائة عام على وفاته (دار الكتب المصرية، القاهرة، 1948) ص281-283.

(2) المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير، تحقيق وجمع أسد رستم، المجلد الثاني، (بيروت، 1941) ص390، ص492-497؛ مرفت أسعد عطا الله، العلاقات بين مصر ولبنان في عهد محمد علي (القاهرة، 2006) ص629.

(3) اغناطيوس:المصدر السابق، ص153.

طلب والده وحاول فرضه بالقوة وتطبيقه على جميع السكان بمن فيهم سكان جبل لبنان الدروز. وتم وصف مسألة التجنيد الإجباري من قبل الليدي ستانهوب بأنها كانت "من بين أكثر التغييرات التي ادخلها إبراهيم باشا على حكم هذه البلاد بشاعة". وليس ذلك إلا بسبب شمول الطائفة الدرزية به والتي عدت نفسها المدافعة عنهم.

استغلت الليدي ستانهوب هذه المسألة وأخذت بدعم قرار مشايخ الطائفة الدرزية في حوران وجبل لبنان في رفض قرار التجنيد والتي وُصفت "بالكريهة على قلوبهم" [1]. أخذت الليدي ستانهوب تستقبل الكثير من أبناء جبل لبنان الطالبين حمايتها، وقد أوردت في مذكراتها الكثير من القصص والحكايات عن ذلك منها إيواءها شقيقين لتاجر كان يعمل معها عندما لجئا إليها فآوتهما ستة أسابيع ثم عادا إلى صيدا دون أن يتعرضا للمضايقة. [2] كان إبراهيم باشا يخشى مهاجمة قلعتها بسبب كونها بريطانية وحليفة لقبائل بدوية، قد تستغلهم وتحرضهم على مهاجمة القوات المصرية، من أجل ذلك حاول عقد اتفاق سلام معها لكنها رفضت الرد عليه[3]. كما رفضت الوقوف على الحياد فأضحت من أشد الناس طعناً بالحكم المصري[4].

وكانت الليدي ستانهوب تأوي في منزلها خدم يعملون لديها ورغم قدرتهم على حمل السلاح إلا أن إبراهيم باشا لم يجرأ على إرسال احد للبحث عنهم تجنباً للاصطدام معها ورغم معاملتها القاسية للخدم فقد تحمل الخدم البقاء عندها على الذهاب إلى التجنيد. وكان إبراهيم باشا قد شدد العقوبات على الفارين وأرسل إلى

---

(1) Memoirs of the Lady Hester Stanhope,op. cit,vol. 2,p. 113-115,p. 124.

(2) Ibid,vol. 2,p. 119.

(3) بوردو، المصدر السابق، ص 17.

(4) بيير كربتيس، إبراهيم باشا، ترجمة محمد بدران (القاهرة، 1937) ص218؛ حمزة عليان، "الليدي الانكليزية حرضت الدروز على الحكم المصري"، جريدة القبس الكويتية، العدد (12966) الأحد، 5 يوليو/ تموز 2009، د. ص.

مشايخ البلاد يحذرهم من إيواء الفارين في قراهم ومنازلهم و"أن من يثبت إيواءه لفارين من الخدمة الإجبارية فان عقوبته الإعدام ولا يقبل به شفاعة"[1].

أما محمد علي باشا الذي أحسن وفادتها عندما زارته في القاهرة فقال عنها:". . . لقد سببت هذه الإنكليزية من الإزعاج لنا أكثر من جميع المتمردين في سورية وفلسطين"[2] لكنه أوصى ابنه أن لا يمسها بسوء خشية إغضاب السلطات البريطانية[3].

لجأ إبراهيم باشا إلى خيار الدبلوماسية وطلب من الليدي ستانهوب أن تسلمه الفارين من عكا من أتباع الوالي عبد الله باشا من دون تهديد، فردت عليه بحزم وأكدت له أن باستطاعته البحث عنهم وأخذهم بالقوة إن أراد لكنها لن تسمح لأي جندي من جنوده بانتهاك حرمة دارها، فاحتار إبراهيم باشا وتوجه إلى القنصل العام البريطاني كامبل(Chambel) يطلب منه أن يكتب إليها ينصحها بالمهادنة، طالباً منها أن تضع قائمة بأسماء العاملين لديها وتحديد جنسياتهم بدقة، وهذا الإجراء سيؤدي بشكل غير مباشر إلى تسليم الفارين، لكن الليدي ستانهوب رفضت بشدة، وأجابته بعجرفتها المعهودة:" متى اعتاد القناصل إصدار الأوامر إلى رؤسائهم"[4].

---

(1) عطا الله، المصدر السابق، ص589.

(2) المصدر نفسه، ص629؛

Charles Roundell,Lady Hester Stanhope(London,1910) p. 170.

(3) عطا الله، المصدر السابق، ص629.

(4) المصدر نفسه، ص629-631. ويبدو أن الليدي ستانهوب قصدت من وراء ذلك تذكير القنصل البريطاني بمكانتها الاجتماعية العليا وأنها متحدرة من الطبقة الارستقراطية الانكليزية وأنها ابنة أخت رئيس الوزراء السابق وليم بت الصغير، لذا فهي أعلى مكانة منه في السلم الفئوي الاجتماعي، لذا ينبغي ان يتعامل معها على هذا الاساس. علماً انها كانت ذات طبيعة متغطرسة وصعبة وكبرياء لامتناهي وهذا ما اكده الكثير من الذين زاروها فضلاً عن مذكراتها، التي كتبها طبيبها ميريون Meryon، والتي يشير فيها الى كثير من هذه التصرفات.

امتدت الثورة الدرزية حتى شملت بعض قبائل الصحراء والجبل وكان على القوات المصرية أن تواجه هجمات الدروز. أما الليدي ستانهوب فقررت مصاحبة الثوار في حركاتهم وأرسلت جواسيس إلى مدن الشام تعرف عن طريقهم كل ما يدور من تطورات وتحركات للجيش المصري، ومن ثم تنشر الأخبار التي من شأنها التحريض على الحكم المصري (1).

لم تسيطر الليدي ستانهوب على مشاعر الدروز بقوة السلاح والمال فقط بل بقوة الإيحاء أيضا وبعد أن باعت كل ممتلكاتها كي تسد حاجة أنصارها الدروز، استدانت الأموال الطائلة لتمويل الثورة حتى أنه لم يبقَ لها ما يكفي من الفناجين لتقدم القهوة لضيوفها(2). وكان من نتيجة هذا الدعم اللامحدود للدروز أن حققوا مكاسب عدة لثورتهم وتم طرد الجيش المصري من بلاد الشام عام 1840م وحضي الدروز بعد ذلك بمكاسب سياسية كبيرة، أما الليدي ستانهوب فلم تتمكن من أن تحظى بانتصارها كما ينبغي بسبب الشيخوخة والمرض.

إن هذا الدور الخطير الذي قامت به الليدي ستانهوب في جبل لبنان أسهم في أنجاح مساعي السياسة البريطانية في التغلغل من اجل فتح المجال أمام مصالحها كي تتدخل، ومما يؤكد هذه المساعي أن الليدي ستانهوب لم تكن تعمل لوحدها في جبل لبنان ضد الحكم المصري بل ثمة شخصيات بريطانية أخرى،

(1) أبلغها في احد المرات احد جواسيسها بعبارة قالها إبراهيم باشا أثناء نجاحه في نزع سلاح دروز دير القمر قال فيها:" عجباً أن هؤلاء الكلاب الدروز لم يكن لديهم رصاصة واحدة يرسلوها إلي"، وفور سماعها تلك العبارة أخذت تستخدمها عند ضيوفها الدروز وهي تضحك هازئة وتقول:" عجباً أيها الكلب الدرزي أليس لديك رصاصة واحدة لإبراهيم " في محاولة لاستفزازهم واستثارتهم. ومنذ ذلك الوقت أمرت خدمها بأنهم إذا ما رأوا احد الدروز عليهم أن يثيروهم ضد الحكم المصري بان ينقلوا نص العبارة التي قالها ابراهيم باشا لتتغرس كالسهم في قلوبهم فيزدادوا غيضاً وحنقاً على الحكم المصري. عطا الله، المصدر السابق، ص631.

(2) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص17-18؛ عطا الله، المصدر السابق، ص 631. وللاطلاع على قائمة بأسماء دائنيها ينظر، Memoirs of the Lady Hester Stanhope,vol. 1,p. 351.

كانت تحصل على دعم الحكومة البريطانية، ساهمت بقدر كبير في زعزعة الحكم المصري. وكان أبرزهم ريتشارد وود(Richard Wood) وهنري تشرشل(Henry ChurChull) وبعض القناصل والتجار الأوربيين[1].

3- علاقتها بالإمارة الشهابية:

تعد الإمارة الشهابية (1697-1842م) واحدة من ابرز الإمارات المحلية في المشرق العربي، التي كان لها شأن كبير في أحداث تلك المرحلة من تاريخ العرب الحديث، ولعله ليس صدفة أن تكون هذه الإمارة محط أنظار معظم الرحالة الأوربيين الذين راموا زيارة الشرق حاولوا الاطلاع على أوضاعه وسبر أغوار دقائقه. والليدي ستانهوب لا تشذ عن هذه القاعدة نظراً لأهمية الإمارة من حيث موقعها الجغرافي والإمكانيات التي تتيحها في ممارسة نشاط سياسي يسهم في البروز والترقي السياسي.

كانت الإمارة الشهابية تتنازعها العصبيات الجهوية ويتنافس فيها الأمراء والمشايخ والمقدمين الإقطاعيين. وكان الأمير الشهابي يقف على رأس هرم السلطة في الإمارة. وكانت الإمارة تعاني من عدم الاستقرار السياسي وهذا الأمر سهّل على الليدي ستانهوب الاستقرار في جبل لبنان ومحاولة التغلغل وتشكيل تحالفات سياسية مع القوى المتنفذة من اجل أداء دور سياسي يهدف إلى زعزعة أركان الإمارة بعدما وجدت أنها لا تحصل على الدعم الكافي من الشهابيين لذا يميل البحث إلى الاعتقاد بان الليدي ستانهوب أدّت دوراً خطيراً في زعزعة نظام الحكم في الإمارة الشهابية وانهيارها.

وأدى دعمها للدروز ضد الأمير بشير الشهابي(1788-1840م) الموالي للمصريين إلى إدخال جبل لبنان في أتون حرب طائفية زعزعت أركان الإمارة وانتهت بانهيارها خلال مدة لا تتجاوز العقدين من الزمن[2].

---

(1) الخالدي وفروخ، المصدر السابق، ص154.

(2) للتفاصيل ينظر، محمود صالح سعيد، المسالة اللبنانية 1840-1861م، جبل لبنان في السياسة الأوربية، مكتبة الميثاق(الموصل، 2009).

كانت علاقة الليدي ستانهوب بالأمير بشير الشهابي، في بداية الأمر، قريبة الشبه بعلاقتها مع والي مصر، فاللقاء الأول كان ايجابياً وينطوي على كثير من التعاون بين الجانبين، زارت الليدي قصر الأمير الشهابي في بيت الدين وقدمت هدايا تزيد قيمتها على ألفي قرش له ولأهله وحاشيته، أما الأمير فأهداها فرساً عربياً أصيلاً[1].

كما زارت الليدي ستانهوب الزعيم الدرزي، الشيخ بشير جنبلاط (1775-1825م) في المختارة[2]، وهذا الشيخ يعد اقوى شخصية في الإمارة بعد الأمير بشير الشهابي، و نجحت في توثيق الصلات معه، وقد أثّر هذا التوجه سلباً في علاقتها مع الأمير الشهابي على أساس أن الشيخ بشير جنبلاط بات منافساً قوياً له، سرعان ما تحولت صلات الليدي ستانهوب والأمير بشير الشهابي إلى تنافس وصراع جعل الجانبين يتنافران عن بعض، خصوصاً بعد استقرارها في جبل لبنان ودعمها للقوى الدرزية على حساب الإمارة الشهابية[3].

ومن العوامل التي ساهمت في تدهور العلاقات بين الجانبين سياسة الأمير بشير الشهابي أثناء الحكم المصري في معاداة العشائر الدرزية التي تربطها

(1) بوردو، المصدر السابق، ص107.

(2) الشيخ بشير جنبلاط:زعيم درزي ورئيس الحزب الجنبلاطي. له الفضل في تثبيت الأمير بشير الشهابي اميراً على جبل لبنان وأصبح محل ثقته ومستشاره في القضايا المهمة والخطيرة أصبح أقوى شخصية في الإمارة نتيجة ذلك خشي الأمير الشهابي من سطوته فعزم على القضاء عليه فدخلت العلاقة بين البشيرين مرحلة الصراع على السلطة وانتهت باغتيال بشير جنبلاط. للتفاصيل:جون كارن، رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة رئيف خوري(بيروت، 1948) ص154؛ رياض غنّام، المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين1788-1861(بيروت، 1998) ص77-80.

(3) بوردو، المصدر السابق، ص102-103؛ باسكال معوض بو مارون، " جون عروس الاقليم المطوقة بمياه الاولي وعبق ازهار الليمون" مجلة الجيش، العدد(239)، بيروت، ايار، 2005م، ص3.

صلات جيدة بالليدي ستانهوب بل والمشاركة في تدابير إبراهيم باشا في التجنيد الإلزامي وعمليات نزع سلاح الأهالي[1].

نلحظ ايضاً أن توجه الليدي ستانهوب من مصر إلى أجزاء من بلاد الشام ساهم بشكل مهم في اطلاعها على أهم القوى السياسية الحاكمة في المنطقة على أمل إقامة صلات معهم والتي يمكن أن تسهم في إبراز دورها السياسي في المنطقة.

ففي صيدا حصلت من الوالي سليمان باشا (1804– 1818م) على معتمدين ومأمورين لمرافقتها في رحلتها إلى تدمر وتسهيلات عدة لمهمتها[2]، وحصلت من حاكم يافا على أمتعة وجمال ومجموعة مسلحة من الانكشارية تحميهم من هجمات اللصوص وقطاع الطرق[3]، ومرت عبر رام الله، وبيت لحم، والقدس، إذ مكثت في بيت المقدس مدة، قبل التوجه إلى جبل لبنان لمقابلة أمير الجبل بشير الشهابي**[4]**. كما لبت دعوة والي الشام سليمان باشا بزيارة دمشق وزارت حماه وحلب[5].

قررت الليدي زيارة (الضريح المقدس) في بيت لحم، رغم أن الزيارة في ذلك الوقت كانت ممنوعة لكنها استطاعت الحصول على موافقة حاكم مدينة القدس وسمح لها بزيارة المكان فكانت بذلك أول إمراة تتمكن من زيارة ضريح السيد المسيح عند النصارى[6]. وهذا مؤشر على الأبعاد الدينية لرحلة الليدي ستانهوب إلى الشرق.

---

(1) غنّام، المصدر نفسه، ص106–110.

(2) العورة، المصدر السابق، ص192–193.

(3) تجدر الإشارة أنه بينما كانت الليدي ستانهوب في يافا طلب أحد الأشخاص المتملقين للسلطة أن تحرر له كتاباً تكيل له المديح وذلك لإرسالها إلى الباب العالي في استانبول لينال من خلاله الحظوة عندهم، وهذا مؤشر على المكانة التي استطاعت الليدي أن تحظى بها في تلك البلاد. المصدر نفسه، ص271.

(4) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص12.

(5) الشهابي، المصدر السابق، ج3، ص583.

(6) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص12.

إن إقامة الليدي ستانهوب صلات مع أبرز حكام المنطقة من أمثال الوالي محمد علي باشا والوالي سليمان باشا والأمير بشير الشهابي والشيخ بشير جنبلاط والشيخ أبو غوش وغيرهم كانت تصب في تحقيق غاية أساسية هي كسب هذه الزعامات السياسية إلى جانبها والاستعانة بهم في دعم دورها السياسي في المنطقة وجعلها محط أنظار اغلب القوى الأوربية العاملة في الشرق لاسيما فرنسا وبريطانيا.

ويتضح هذا الدور أثناء استقرارها في جبل لبنان. أخذت تؤدي دوراً مهماً للسياسة البريطانية والفرنسية. من ذلك لقاءها بضابط في البحرية البريطانية الذي وصل من استانبول باحثاً عنها لإيصال رسائل بالغة الخطورة من السير سيدني سمث Sidny Smith (1764-0184م)،(1)لا تحتمل أي تأخير وفي بعضها تكليف لها بتسليم عدد من هذه الرسائل إلى الأمير بشير الشهابي والشيخ أبو غوش في فلسطين يطلب منهم الدعم والمساندة وجاء في إحدى الطلبات إلى الأمير بشير الشهابي أن يقوم بإرسال الفاً وخمسمائة من سكان الجبل للانضمام إلى حملة بريطانية بحرية ضد البحرية الجزائرية التي كانت تهدد السفن البريطانية والأوربية. وأرسل السير سمث رايات وخطط للحملة العسكرية التي وافقت عليها

---

(1) وليم سدني سمث، دخل البحرية عام 1777م درس الفرنسية في كين(Caen) وضع على رأس قيادة البحرية البريطانية في الشرق وحارب نابليون في عكا عام 1799م من خلال منع أي تحركات عسكرية فرنسية بحرية نحو عكا وبقي في الخدمة هناك مدة طويلة. عرف عنه الغرور والولع بمدح نفسه لكنه يتمتع بشجاعة ونشاط واضحين أصبح أدميرالاً عام 1821م وتوفي في باريس.

The Dictionary of national Biography,op. cit,p. 1218

دول النمسا وبروسيا وروسيا وفرنسا وملك المغرب وباي تونس. وطلب من الليدي ستانهوب الحصول على قرض من احد أصدقائها السوريين[1].

إن هذه الرسائل تدل دلالة واضحة على الدور المهم الذي أخذت تؤديه ستانهوب للسياسة البريطانية. وقد اغتبطت الليدي ستانهوب بهذه الرسائل وبدورها كوسيط في هذه العملية، لكنها أدركت صعوبة تحقيق هذه الطلبات أن لم يكن استحالتها، كتبت إلى السير سدني سمث تعلمه بصعوبة تحقيق هذه الطلبات، وذلك أن الأمير بشير الشهابي لديه من الأعداء ما يحول دون تخليه عن ألف وخمسمائة جندي يساهمون في القضاء على خصومه ومنافسيه، وأضافت أن هؤلاء الجنود ليسوا محاربين مهرة إلا في الجبال وأنهم غير مستعدين لترك بلادهم وركوب البحر، وفوق هذا وذاك تقول الليدي ستانهوب أن السير سدني سمث ملزم بالحصول على إذن من والي صيدا كي يوافق على فتح ميناء عكا لنقل الجنود لأن الأمير بشير الشهابي لا يملك ميناء تابع له[2].

أرسلت الليدي ستانهوب نسخة من رسائلها ورسالة السير سدني سمث الى السفير ليستون (Leeston) في استانبول والسيد باركر(Barker) قنصل بريطانيا في حلب راجية من الاخير ان يوقف جميع الرسائل المرسلة من سمث إلى الأمير بشير الشهابي.

ورغم الهدايا التي بعثها السير سدني سمث إلى الأمير بشير الشهابي والشيخ أبو غوش، فان القلق الشديد قد انتاب الأمير بشير الشهابي فالحكومة العثمانية لا تتسامح في أمر يتعلق بتهديد أوربي ضد احد ولاياتها[3].

---

(1) بوردو، المصدر السابق، ص176-177. ويبدو ان هذه الرسائل جاءت ضمن سياسة التحريض ضد العمليات الجهادية التي كانت تقوم بها البحرية الجزائرية ضد السفن الاوربية، ومما افسح المجال امام بريطانيا لمثل هذه الافعال ضعف الدولة العثمانية العسكري في مواجهة هذه الدول مما دفع بريطانيا للتدخل وحبك الخطط مستهينة بالدولة العثمانية ومعرفتها المسبقة بعجزها عن مقاومة هذه التحركات التي تقوم بها بعض الدول الاوربية كبريطانيا وفرنسا.

(2) بوردو، المصدر السابق، ص177.

(3) المصدر نفسه، ص177-178

فنلحظ من خلال ذلك أن الليدي ستانهوب كانت تؤدي دوراً ليس بالهين في منطقة تتضارب فيها المصالح وتعد ذات مستقبل سياسي غير واضح المعالم.

4- الرحلة إلى بادية الشام:

كانت فكرة زيارة الشرق عند الليدي ستانهوب تنطوي على كثير من الغرائب. وكانت تمتلك معرفة واطلاعاً واضحين على طبيعة المنطقة، ويجول في خاطرها الذهاب إلى مدينة تدمر الصحراوية لاعتقاد غريب كان يتملكها أنها أرادت بان تتوج ملكة على الشرق كما هو الحال عندما أصبحت زنوبيا[1]ملكة على تدمر في مسعى لتقليد سيرة هذه الملكة العظيمة![2].

طبيعي أن هذه الأفكار لم تكن مجرد نسيج حاكه خيالها الخصب بل ثمة دوافع وأهداف تقف وراء مسعاها لتدعي أنها توجت ملكة على تدمر من قبل الأهالي. وللتعرف على دوافع وأهداف الليدي ستانهوب في الرحلة يؤكد البحث أن الليدي ستانهوب قابلت أثناء نشأتها في بريطانيا العديد من الشخصيات التي كان لها اثر في تكوين شخصيتها وميلها نحو الإيمان بالخرافات والأساطير من ذلك صديقها ريتشارد بروذرز (Richard Brothers)الذي تنبأ لها بأنها سوف تذهب إلى القدس وسوف تقود "الشعب المختار" ويقصد بهم اليهود وبأن النبوءة تقول بأنه عند وصولها إلى فلسطين سوف تحدث تغييرات كبرى في العالم[3]. وجدت مثل

---

(1) زنوبيا، هي الزباء بنت عمرو بن الظرب زوجة الملك أُذينه، تولت الوصاية على ابنها (وهبلات). سعت إلى تنظيم الدولة وتوسيعها مما أدى إلى حدوث احتكاك وتصادم مع الإمبراطورية الرومانية. تقربت من القبائل العربية القريبة من مملكتها وحاولت الاعتماد عليهم في القتال والحروب فادرك الرومان مخاطر سياستها فسعوا للقضاء عليها فاستولوا على تدمر وأزالوا مملكة الزباء. للتفاصيل ينظر، جواد علي، المفصّل في تأريخ العرب قبل الإسلام(بيروت، 1978) ج3، ص103-123.

(2) Robin Fedden,John Murray,Syria and Lebanon(London,1965) p. 203- 204.

(3) هنري لورنس، المغامر والمستشرق، ترجمة بشير السباعي(القاهرة، 2003) ص35-36.

هذه النبوءات قبولاً في قلب الليدي ستانهوب جعلها تصدق ذلك وكان بعض خدمها مثل جورجيو يدعم هذا التصور لديها مما أسهم في تشكيل تصور خاص لديها تبلور على شكل مشروع سياسي وديني يقع على عاتقها تنفيذه.

في الواقع، استهوت مدينة تدمر التاريخية كثيراً من الرحالة والمؤرخين والباحثين الأوربيين قبل رحلة الليدي إليها[1]، وتعد الليدي ستانهوب ابرز هؤلاء. فتدمر مهمة كثيراً بالنسبة لها إذ أعتقدت انه من خلالها سوف يتسنى لها الاتصال بالحركة السلفية في نجد[2] والتعاون مع رجالها في مقاومة النفوذ الفرنسي وتعزيز النفوذ البريطاني وتقويته[3].

كانت ستانهوب في توق لزيارة تدمر وأخذت بالاستعداد لذلك، حملت متاعها واستأجرت نحو إثنين وعشرين جملاً للسير في قافلة. وقررت أن تظهر بالزي العربي البدوي الرجولي رافضة عرض والي دمشق إرسال قوات لحمايتها، إذ فضّلت أن تسير وسط القافلة، تحميها عناصر بدوية وان تنزل عند الشيوخ العرب،

---

(1) زارها اول مرة الرحالة الايطالي بطرس ديلا فالا (Peter Dilavala) في القرن السابع عشر وبعده بتسع سنوات وصلها الرحالة الفرنسي جان بلتيس تافرنييه(J. B. Tavernier) كما زارتها مجموعة أخرى تضم ثلاثين رحالة برئاسة الكاتب القس البريطاني هاليفكس (Halvex) الذي اصدر عام 1695م كتاباً بعنوان "تدمر" وبدأت بعد ذلك الاهتمامات الأوربية بتدمر تزداد، فكانت زيارة الليدي ستانهوب تندرج ضمن طموحها للوصول الى هذه المدينة. للتفاصيل عن الاهتمام الاوربي بمدينة تدمر ينظر. تقرير وكالة سانا للانباء– دمشق" تدمر مدينة استهوت المؤرخين والباحثين العالميين " ايار/ 2008.

(2) الحركة السلفية، حركة دينية إصلاحية إسلامية دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي(1703–1779م) في الأربعينيات من القرن الثامن عشر للميلاد وتدعو إلى التوحيد ونبذ مظاهر الشرك في المجتمع الإسلامي والعودة إلى الإسلام بنقائه، نجحت الحركة في توحيد نجد والحجاز وامتدت دولتهم من البحر الأحمر إلى الخليج العربي عام 1808م وفي عام 1818م تم إزالة دولتهم على يد الوالي محمد علي باشا بأمر من الدولة العثماني. فلاديمير لوتسكي، تأريخ الاقطار العربية الحديث، ط9، (بيروت، 2007) ص90–101.

(3) لورنس، المصدر السابق، ص35.

الذين أُعجبوا بشجاعتها وتصميمها على الدخول في أعماق الصحراء والنزول عند تدمر [1]. كانت بادية الشام في ذلك الوقت مكاناً لحرب ضروس بين قبائل بدوية مختلفة. وكانت مدينة تدمر الواقعة وسط بادية الشام تعد منطقة محرمة على الأوربيين[2]، فكانت تشهد بالإضافة إلى ما سبق صراعاً بين الحركة السلفية الوهابية وقبيلة عنزة العربية[3]. لكن الليدي لم تثبط عزيمتها فقررت مقابلة أقوى شخصية بدوية آنذاك في البادية وهو الشيخ (مهنا الفضل) شيخ عشيرة الحِسنَةَ من عنزة[4]، لأنها اعتقدت أن مهمتها ورحلتها إلى تدمر لن تكون آمنة إلا بوضع اتفاقات واضحة مع القوى المتنفذة في البادية فنجحت في الحصول على دعم الشيخ المسن مهنا الفضل شيخ عنزة في البادية ودفعت مبلغ ثلاثة الآف قرش ثمن مرورها عبر البادية؛ في المقابل زودها الأمير مهنا بأربعين جملاً وسبعين رجلاً لحمايتها[5].

غادرت الليدي ستانهوب مضارب الأمير مهنا بن الفضل في 20اذار/مارس 1813م بصحبة (الأمير ناصر) احد أبنائه والذي تربطه صلات قوية بالسلطات العثمانية[6]

(1) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص13.

(2) للتفاصيل ينظر، رحلة فتح الله الصايغ الحلبي الى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة، تحقيق يوسف شلحد(دمشق، 2008) ص57-59.

(3) الكولونيل تشرشل، جبل لبنان عشر سنوات إقامة بين الموارنة والدروز، ج3 (بيروت، 1998)، ص212.

(4) عشيرة عنزية أبناء عمومة قبيلة الرولة وكانت على أحسن الصلات وأمتنها مع أقاربها. تعد من أعلى عشائر عنزة قدراً ورهبة وشجاعة أبعدت عن براري حمص وحماه عشيرتي الموالي وشمر ووطدت سيطرتها على شرقي طريق دمشق- حمص. للتفاصيل ينظر. احمد وصفي زكريا، عشائر الشام(دمشق، 1997) ص434-442.

(5) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص13.

(6) وصل قبل زيارة الليدي ستانهوب إلى تدمر بيورلدي – أمر إداري- من والي الشام في دمشق إلى الأمير ناصر بن مهنا الفضل تطلب منه الحضور لتنصيبه أميرا على بادية

وبعد أيام وصلت تدمر(1). فكانت هذه المرة الأولى التي تمر فيها إمراة أوربية بمدينة تدمر. وكتب احد مرافقيها بالرحلة وهو الدكتور ميريون (Meryon) قائلاً:" دخلت الليدي راكبة صهوة جوادها مارة في شارع الأعمدة مسجلة بذلك دخول أول سيدة أوربية لهذه المدينة"(2).

كانت الليدي ستانهوب تسرف في العطاء على مضيّفيها وفي احاطة نفسها بمظاهر الأبهة والبذخ كأنها تريد أن تعيد إلى الأذهان سيرة الملكة زنوبيا ملكة تدمر(3). ويبدو أن زيارتها عززت من مكانتها لدى سكان تدمر، وحققت نتيجة ذلك مكاسب مهمة نتيجة الإسراف في العطاء، من جملة المكاسب التي حققتها إعلانها عن قرار يلزم كل أوربي يرغب بزيارة تدمر تحت حمايتها أن يسدد رسماً مقداره ألف قرش(4). رغم انه لم يردنا تفاصيل ذلك الاتفاق غير أن هذا الرسم يبدو انه كان عبارة عن قرار تم التفاهم مع الشيخ مهنا الفضل أو انه مجرد ادعاء حاولت من خلاله أن تثبط عزيمة الرحالة الأوربيين على زيارة المدينة(5).

نجحت الليدي ستانهوب في كسب ود بعض العشائر العربية البدوية كعنزة واستطاعت الإفادة منهم أثناء تصديها للقوات المصرية في بلاد الشام، خصوصاً

الشام ومعاقبة القبائل غير الموالية للدولة العثمانية. ينظر، الصايغ، المصدر السابق، ص71-73.

(1) Fedden; Murray,op. cit,p. 203.

تجدر الاشارة الى أن صلابة ستانهوب كانت واضحة بعد سلسلة من الغارات الوهمية التي شنها فرسان الشيخ مهنا الفضل نفسه محاولاً امتحان شجاعتها بعد أن يأس من محاولات ابتزازها، أثبتت الليدي ستانهوب شجاعة وصلابة جعلها محط اعجاب وتقدير الامير ناصر واعوانه.

Paston,op. cit,p. 230

(2) تقرير وكالة سانا للانباء- دمشق، المصدر السابق.

(3) عليان، المصدر السابق، د. ص؛ الوردي، المصدر السابق، ج2، ص40. للاطلاع على صور من هدايا الليدي الى حكام المنطقة ينظر، العورة، المصدر السابق، ص193-194.

(4) لامارتين، المصدر السابق، ص161.

(5) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص13-14.

إذا علمنا أن رحلة الليدي ستانهوب إلى تدمر كانت تهدف أيضاً إلى كسب ود العشائر البدوية القاطنة في الصحراء للاستعانة بهم وقت الحاجة لقطع الطريق أمام مساعي السياسة الفرنسية في الوصول إلى الهند عبر الصحراء العربية في عهد الإمبراطور نابليون بونابرت(1804-1815م) والذي كان قد أرسل جواسيسه لتحقيق هذه الغاية[1].

تجدر الإشارة إلى أن نبأ رحلتها بلغت أسماع أهالي تدمر أنفسهم قبل أن تصل، إذ كانت أثناء الرحلة تعلن بوضوح عن هدف زيارتها، لذلك ما أن وصلت إلى تدمر في آذار/ مارس 1813م حتى استُقبلت بحفاوة واحتفال كبيرين خُيّل إليها بأن هذا الاحتفال ما هو إلا تتويج لها على مملكة تدمر باسم " الملكة إيستر "[2]. لم تقضِ ستانهوب في "مملكتها" سوى أسبوع تفحصت خلاله بعض الآثار، وكان الأمير ناصر مرافق الرحلة ودليلهم يستعجلهم بذريعة هجوم متوقع من قبيلة معادية فقفلت الليدي ستانهوب راجعة من تدمر في الرابع من شهر نيسان/ ابريل 1813م[3]. ويبدو أنها حققت بعض أهداف الرحلة منها الاطلاع على الوضع السياسي العام في تدمر والمنطقة المحيطة بها ووطدت علاقاتها مع أبرز القبائل القاطنة هناك للاستفادة من إمكانياتهم في دعم دورها السياسي.

لذا يميل البحث للإقرار بأن ثمة أمر أكثر أهمية من رؤية الآثار أو الكشف عن الكنوز، كانت الليدي ستانهوب تروم تحقيقه من رحلتها، وما يدفع بهذا الرأي بعض المصادر التي أكدت هذا التوجه، فعندما رامت التوجه إلى تدمر مرت

(1) للتفاصيل ينظر:الصايغ، المصدر السابق، ص16-20؛ الهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر(القاهرة، 1995) ص70-72؛

(2) ادعت الليدي في أوراقها أن قبائل تدمر توجتها ملكة على الصحراء وأقامت لها موكباً حافلاً يوم التتويج والتاج فوق رأسها من تحت قوس النصر. ولعل هذه الرواية من المبالغات التي أوردتها الليدي لكي تظهر أهمية رحلتها ودورها في تدمر. محي الدين لاذقاني:" رماد الملكة" جريدة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9411)، الجمعة 19 رجب 1425هـ 3، أيلول/ سبتمبر، 2004.

(3) بوردو، المصدر السابق، ص160.

عبر دمشق وهناك كلفت طبيبها الدكتور (ميريون) البحث عن شخصية تدعى تيودور دو لاسكاريس(T. Du Lascaris)[1]، الذي كان يقيم في حلب بحجة حاجتها إلى ترجمان[2] غير أن الهدف الحقيقي هو رغبتها الانخراط في سياسة عربية تهدف إلى كسبهم لصالحها، فالعرب بالنسبة لها أحد مفاتيح طريق الهند، فاعتقدت أن بوسع لاسكاريس أن يكون مفيداً لها، حتى أنها أوصت به السلطات البريطانية في إمكانية الإفادة منه إذ تقول عنه أنه:" برغم تقلباته، غير ان درايته التامة باللغة العربية، سوف يكون عميلاً استثنائياً"[3].

إن تدمر مهمة جداً للّيدي ستانهوب. فهي تعتقد أنه سوف يتسنى لها الأتصال بالوهابيين[4] الذين سيسهلون مهمة بريطانيا في مرورها عبر الصحراء إلى الهند. لكن الليدي ستانهوب سرعان ما أدركت صعوبة التعامل مع هذه الشخصية وصعوبة تسخيرها في خدمة اهدافها فعللت عدم جدوى الإفادة منه بأنه كان:"يهتاج دائماً، لذلك لم يعد ولن يكون أبدا صالحاً لشيء"[5].

بلغت مكانة الليدي ستانهوب مستوىً رفيعاً لدى سكان بلاد الشام عقب عودتها من رحلتها إلى البادية العربية، ولم تكتفي بها فشرعت بالتنقل عبر المدن الشامية تستطلع أحوال السكان وتقف عند شؤونهم وكانت ترغب بجمع أكبر قدر

(1) لاسكاريس:هو تيودور دو لاسكاريس دو فنتيميل، من مواليد عام 1774م في بيدمونت بسردينيا، كان احد فرسان مالطة الصليبيين، وعندما احتل بونابرت مالطة عام 1798م انخرط في العمل مع الحملة العسكرية الفرنسية كمعماري. حرض الأقباط على المطالبة بالتزام صعيد مصر وطالب ببقاء الاحتلال الفرنسي عبر إقامة مستعمرة فرنسية دائمة في الصعيد، ولما فشل الاحتلال تولى منصب سكرتير قنصل فرنسا في صيدا عام 1806م وهناك حرّض الموارنة في جبل لبنان على إنشاء دولة نصرانية تكون قاعدة للنفوذ الفرنسي في الشرق. استخدمته الليدي ستانهوب عام 1813م مترجماً لها في رحلتها إلى تدمر علّها تفيد من علاقاته مع عشائر تلك المنطقة. حول نشاطه ينظر، لورنس، المصدر السابق، ص13-34.

(2) Memoirs of the Lady Hester Stanhope,vol. 1,p. 299-301.

(3) لورنس، المصدر السابق، ص35.

(4) المصدر نفسه، ص35.

(5) لورنس، المصدر السابق، ص36.

ممكن من المعلومات التي يمكن الإفادة منها، فزارت اللاذقية وصيدا وبعلبك واهدن وطرابلس، مستفيدة من الفرمان السلطاني الذي يخولها دخول اية مدينة تشاء[1].

وبالرجوع إلى مذكراتها نجد دقة التفاصيل التي كانت توردها عن أحوال السكان والأوضاع المعاشية لهم وبعض عاداتهم وتقاليدهم، بل ووصف دقيق للمدن والقرى التي قامت بزيارتها وحتى الأحوال الجوية وأبرز الشخصيات المحلية التي تعاملت معها[2].

وبذلك نجحت الليدي ستانهوب في توطيد علاقاتها مع حكام المنطقة في جنوب بلاد الشام وشرقه وشماله واستمرت بهذا النشاط حتى عام 1815م لتبدأ مرحلة جديدة من نشاطها السياسي والمتمثل بالإقامة في جبل لبنان[3].

ثالثاً / الاستقرار في جبل لبنان

كانت الرحلة إلى آثار تدمر بالنسبة لللايدي ستانهوب وحتى بالنسبة لأي شخص تعد رحلة شاقة للغاية، وبعد تجوالها في مدن الشام قررت الاستقرار في جبل لبنان، فتوجهت إلى صيدا حيث استقرت في دير مار الياس الذي كان متروكاً فاستأجرته من رهبان دير المخلص[4].

---

(1) بوردو، المصدر السابق، ص161-171.

(2) للتفاصيل ينظر

Memoirs of the Lady Hester Stanhope,vol. 2,p. 141-143.

(3) بوردو، المصدر السابق، ص168.

(4) مجلة كونستلاسيون، المصدر السابق، ص13-14؛ أغناطيوس، المصدر السابق، ص152. ودير المخلص الواقع قرب صيدا أسسه المطران افتيموس صيفي عام 1711م وهو الدير الأم ومركز الرئاسة العامة للرهبان المخلصين يشتهر بمكتبته التي ضمت مخطوطات ثمينة. المنجد في اللغة والاعلام، المصدر السابق، ص295؛ لامارتين، المصدر السابق، ص161.

سعت الليدي ستانهوب إلى مخاطبة الحكومة البريطانية في بداية الأمر على أمل أن يساعدها ذلك في دعم مشروعها السياسي في المنطقة، فأرسلت في أعقاب انتهاء رحلتها من تدمر رسالة إلى صديقها الجنرال البريطاني اوكس (Oakes) تصف فيها تجربتها الأولى مع البدو وفيما جاء فيها:" إن الرئيس العظيم مهنا الفضل يسيطر على أربعين ألفا من الرجال" في إشارة إلى الأهمية التي تعولها في كسبهم إلى جانبها. كما بعثت رسالة أخرى، بعد وصولها اللاذقية، إلى احد أصدقائها المستر اوين(Oynn)تؤكد فيها زيارتها تدمر [1].

من جهة ثانية، استطاعت الليدي ستانهوب إقناع حكام المنطقة بأنها مجرد فتاة انكليزية تحلم بالشرق وسحره، لذا سُمح لها البقاء وبناء منزل فيه. وبحسب إحدى الروايات فان الظاهر من إقامتها في الشرق "لأجل الفرجة والتنزه بسبب حالة نفسية تعرضت لها بسبب مقتل خطيبها في أحد الحروب "[2] ولكن هذه الرواية تخالف النشاط الذي كانت تمارسه بعد إقامتها، فوالي صيدا كان متساهلاً معها ولم تكن شفاعتها لتخيب عند والي دمشق سواء أكانت في سبيل تاجر أم سائح[3].

وفي هذا الدير، أخذت تؤدي دوراً مهماً. فأصبح الدير أشبه بإمارة صغيرة محصّنة اتخذتها مقراً تحيك فيه الدسائس والمؤامرات [4] وأصبح في فترة من الفترات مأوى للنصارى خاصة الأوربيين أثناء تدهور العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوربية في أعقاب حرب اليونان في عشرينيات القرن التاسع عشر. وكان منزلها يعج بمئات اللاجئين وكانت هي مسؤولة عن توفير الغذاء والأمن لهم[5].

---

(1) The life and letters of lady Hester Stanhope,by her niece the Duchess of Cleveland (London,1914) p. 159.

(2) الشهابي، المصدر السابق، ج3، ص583.

(3) كارن، المصدر السابق، ص209.

(4) يزبك، المصدر السابق، المجلد الاول، ص177.

(5) بومارون، المصدر السابق، ص4؛ عطوي، المصدر السابق، ص7.

يقع الدير، الذي استأجرته الليدي بـ عشرين جنيهاً في السنة[1]، في الجهة الشمالية الشرقية والذي عُرف فيما بعد بـ "ظهر الست"[2]. وهذا الدير قبل مجيئها كان قد حوّله أحد التجار الى خان للمسافرين، فاعتنت به ورممته وأضافت إليه بعض الأجنحة والممرات والإسطبلات وحتى الملاجئ تحت الأرض لتحتمي به أيام الحروب مما يعطي للمرء قناعة بأن الليدي ستانهوب كانت تخطط للمواجهة مع السلطات المحلية، كما إنها أعدت تحت الأرض غرفة استخدمتها كمخبأ للهاربين وهذه الغرفة تتصل بسرداب يؤدي الى خارج القصر لتسمح بالهروب[3].

استضافت الليدي ستانهوب في هذا الدير العديد من الشخصيات المشهورة[4]، وكان السياح يأتون إليها من كل حدب وصوب قاطعين الأميال لرؤيتها، يدفعهم الرغبة والفضول للكتابة عنها، فكانت سيرتها وحياتها تشكل مادة غنية لمذكراتهم وخصوصاً تصرفاتها الغريبة[5].

---

(1) يبدو أن أسعار الإيجارات في جبل لبنان كانت متدنية جداً إلى درجة أن الليدي لا تنفق على السكن سوى 6% من راتبها التقاعدي ويبدو أيضا أن قيمة الجنيه الإسترليني في ذلك الوقت كانت أعلى من قيمة العملة العثمانية بأضعاف كثيرة والحالة هذه تنطبق مع الفرنك الفرنسي الذي يعادل ثلاثة أضعاف العملة العثمانية. فبحسب لامارتين الذي استأجر بيتاً كبيراً يتألف من ست غرف وصلت أجرته في السنة ألف قرش ما يعادل ثلاثة مائة فرنك تقريباً في حين يصل إيجار منزل واحد في أوربا من أربعة إلى خمسة الآف فرنك. لامارتين، المصدر السابق، ص158. ولعل انخفاض العملة العثمانية وأسعار المنازل هو الذي شجع كثير من الأوربيين على السفر إلى الشرق واستئجار المنازل لمدد طويلة. كما إن حياة الترف في البلاد العربية لم تكن تتطلب نفقات كثيرة فالحكام يوفرون للرحالة ذوي الشأن مرافقة وحراس وتشريفات لها صداها ولا تكلف إلا بضعة قروش. بوردو، المصدر السابق، ص181.

(2) كارن، المصدر السابق، ص220.

(3) عطوي، المصدر السابق، ص3-7.

(4(Memoirs of the Lady Hester Stanhope,vol. 3,p. 37-39.

(5) الشهابي، المصدر السابق، ج3، ص583؛ بو مارون، المصدر السابق، ص5.

وعند استقرارها في جبل لبنان رحّب بها الأمير بشير الشهابي في البداية، وكان يزورها في ليالي الشتاء محاولاً إقناعها بنقل رسائل إلى لندن، ولكن الأمير سرعان ما ضاق ذرعاً بنشاطاتها، فقد سعت إلى كسب الزعامات الدرزية إلى جانبها خاصة الأسرة الجنبلاطية وأخذت تؤسس لنفوذها وتعمل على كسب الحلفاء والأنصار لها، وأخذت بمعارضة الأمير بشير الشهابي وانتقاده علانية في مجالسها واستطاعت أن تكّون لها نفوذاً وسلطة كبيرين حتى بين سكان المناطق المجاورة الذين كانوا يحترمونها ويطيعونها إلى درجة تبعث على الدهشة[1].

ووصل الأمر بالليدي ستانهوب حداً أن قامت بتشكيل جيش من المتطوعين الدروز شكلوا قوة شعبية تابعة لها مما أجج الخلاف بينها وبين الأمير بشير الشهابي الذي أرعبه صورة الدروز وهم مدججون بالسلاح تحت إمرتها يتلقون الأوامر منها[2]. أنفقت الليدي ستانهوب أموالاً طائلة في تحمل تكاليف هذه القوات، وكانت تمول قواتها أيضاً من الضرائب والأتاوات التي تفرضها على الزوار الأجانب أو المارة الغرباء خصوصاً المسافرين بين مرفأ صيدا وجبال الباروك وصولاً إلى دمشق[3].

شيّدت الليدي ستانهوب الأسوار وارتدت الزي العربي فلبست العمامة ومداساً برأس منعكف وصارت تدخن النرجيلة وتحمل السوط والخنجر. ولتتقرب

---

(1) اغناطيوس، المصدر السابق، ص152–153؛ يزبك، المصدر السابق، المجلد الأول، ص179–180.

(2) خمار، المصدر السابق، د. ص.

(3) المصدر نفسه. تجدر الإشارة أن تمويلها لم يشمل ذلك فقط بل مولت حتى المساجد والكنائس لكسب تعاطف علماء ورجال الدين إلى صفها. كارن، المصدر السابق، ص209– 210. ولعل سكوت الولاة على هذه الاجراءات التي تقوم بها هو انها كانت تعيش في منطقة وعرة للغاية يصعب على الجيوش الدخول اليها فضلاً عن كون هذه المنطقة تخضع لادارة الامارة الشهابية التي من الممكن ان تكون الليدي ستانهوب قد اتفقت على تطبيق هذا الاجراء بالتفاهم مع الامير بشير الشهابي كما هو الحال بالنسبة الى اتفاقها مع الامير مهنا الفضل على استحصال مبلغ من المال لكل سائح يروم زيارة تدمر.

أكثر من السكان شرعت بتعلم اللغة العربية وأولعت بعلم التنجيم والكيمياء القديمة[1]. كما قدّمت خدمات طبية إلى أُسر الأعيان بواسطة طبيبها ميريون بغية زيادة تقاربها منهم لا سيما أسرة الأمير بشير الشهابي والشيخ بشير جنبلاط[2] وزيادة في الأبهة أحاطت نفسها بحرس من الألبانيين وحاشية من الزنوج وفرضت عليهم أن يسلكوا معها حسب قواعد التشريفات الملكية[3].

عندئذ قرر الأمير بشير الشهابي مواجهتها وتصفية الزعامات الدرزية السائدة لها وبالأخص الزعامة الجنبلاطية، [4]، فتم له اغتيال الشيخ بشير جنبلاط في دمشق سنة 1825م[5]. كما حاول الأمير بشير الشهابي تهديدها أكثر من مرة، لكن الليدي حذرته بأنها ستحرض الناس عليه. ولما أمر قواته بمنع الزاد والماء عنها بالإضافة إلى منعه الزائرين من الوصول إليها وتعرّض نفر من خدمها إلى الضرب تدخلت الدولة العثمانية وطلبت من الامير الشهابي الكف عن مضايقتها فحال ذلك دون تعرض الأمير لها مجدداً[6].

لم تكتف الليدي ستانهوب التدخل في شؤون الإمارة الشهابية بل أخذت تتطلع لمد نفوذها خارج الإمارة، وزاد في مكانتها عند حكام المنطقة إرسال الدولة العثمانية أحد كبار موظفيها القبوجي باشا درويش مصطفى آغا ومعه صلاحيات واسعة وفرمانات موجهة إلى باشوات دمشق وعكا وبقية الحكام تأمرهم فيها بتسهيل مهمة الليدي ستانهوب وكان مشروعها البحث عن كنز دفين بين صيدا وعسقلان،

---

(1) Memoirs of the Lady Hester Stanhope,vol. 2,p. 251-255.

(2) بدر الحاج، رسائل الامير بشير والشيخ بشير جنبلاط وابراهيم باشا الى الليدي استير ستانهوب، جريدة السفير، بيروت، السبت، 27/ 12/ 1986؛ غنّام، مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر (بيروت، 2000) ص210.

(3)لامارتين، المصدر السابق، ص161.

(4) للتفاصيل ينظر، طنوس الشدياق، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج1 (الجامعة اللبنانية، بيروت، 1970)، ص148-150.

(5) Memoirs of the Lady Hester Stanhope,vol. 1,p. 113-116.

(6) اغناطيوس، المصدر السابق، ص153.

وهذا المشروع بالأصل من بنات أفكارها، فمن أجل كسب دعم السلطات العثمانية للإقامة في بلاد الشام طلبت من السفير البريطاني في استانبول (السير روبرت ليستون) (Robert Lestoon) أن يقدم مشروعها إلى الحكومة العثمانية والقاضي بوجود كنز دفين في مواضع معينة من أنقاضٍ وأطلال بين صيدا وعسقلان مؤكدة أن المال كله للسلطان وأنها ستحتفظ بشرف الكشف عنه فقط. أما نفقات الكشف عن الكنز فستدفعها الحكومة البريطانية[1]. وبهذه الطريقة تمكنت من الحصول على مكانة أكبر من ذي قبل وأصبح بإمكانها الادعاء أنها تمثل السلطان.

وبالرغم من امتناع الحكومة البريطانية عن دفع نفقات العملية إلا أن الليدي ستانهوب قررت المضي في المشروع على حسابها الخاص. ورغم أنها لم تعثر إلا على بعض التماثيل والآثار، معتقدة أن الكنز قد سبقها إلى اكتشافه الوالي احمد باشا الجزار (1775–1804م) عندما كان يروم بناء مسجده في هذه المنطقة[2]. إلا أن محاولتها تلك عززت من مكانتها ودورها في المنطقة وبات الجميع يحسبون لها حساباً.

استعانت الليدي ستانهوب أثناء إقامتها في جبل لبنان بالجواسيس والعملاء ليجوبوا المدن الكبرى في بلاد الشام ويطلعوها على المعلومات الضرورية عن أحوال هذه المدن[3] . ومن جهة ثانية، استمرت في دعم صلاتها مع الشيوخ واستمرت تراسل بعض حكام المدن والباشوات لتحقيق طلباتها[4]. وضمن هذا التوجه يندرج تدخلها عند والي عكا سليمان باشا للبحث عن قتلة الجاسوس

(1) بوردو، المصدر السابق، ص168–169؛ تشرشل، المصدر السابق، ج3، ص196.
(2) بوردو، المصدر نفسه، ص181؛ العورة، المصدر السابق، ص193.
(3) الوردي، المصدر السابق، ج2، ص40؛
Memoirs of the Lady Hester Stanhope,vol. 2,p. 182–185.
(4) الوردي، المصدر نفسه، ج2، ص40؛ فيليب حتي، تأريخ لبنان، منذ أقدم العصور التأريخ ية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة(بيروت، 1972). ص128؛ كارن، المصدر السابق، ص211–212.

الفرنسي فنسان ايف بوتان[1] F. E. Boutin، الذي يُعتقد انهم بعض قطاع الطرق، والتي لم يهدأ لها جفن حتى ثأرت من قتلته[2].

إن هذا النشاط يدل على تورط الليدي ستانهوب في الشؤون الداخلية للإمارة الشهابية والمنطقة على عكس ما نفاه السفير البريطاني في لبنان لويس وات(Louis Watt) في مؤتمر صحفي عقده لغرض نقل رفات الليدي عام 1988م وإعادة دفنه في مقره الصيفي في بلدة عبيه[3].

ومما يؤكد أهمية الدور الذي أدته في جبل لبنان انها بعد فترة وجيزة من وفاتها عام 1839م دب التوتر الطائفي بين الدروز والموارنة وتصاعدت حدته منذ عام 1840م وأحداث 1841و1845 وانتهاءاً بفتنة عام 1860م الدموية الرهيبة.

---

(1) ضابط فرنسي ولد في مدينة نانت الفرنسية عام 1768م، ودخل الهندسة العسكرية وبرهن عن جدارته حتى أصبح متخصصاً في الأعمال العسكرية الخاصة والخطيرة. عُهد إليه في عهد نابليون بونابرت مع رفيقه نرسيات(Nerciat) بمهمة استطلاعية نحو الشرق تمهيداً لغزوها، وقد تعرّف إلى الليدي وعندما كان متجهاً إلى اللاذقية بصحبة أحد خدمها، الذي توفي في حماه، ترك الطريق المألوف واتجه إلى الجبال الغربية لسورية (جبل العلويين) وهناك وصلها نبأ اختفاءه. اغناطيوس، المصدر السابق، ص153-154. وقد سجل أخباراً مهمة بوتان العسكرية والسياسية فيما بعد اوربان بعنوان (رحلات الكولونيل بوتان السياسية) للتفاصيل ينظر، ذهني، المصدر السابق، ص70-72.

(2) ذهني، المصدر نفسه، ص71. وتجدر الإشارة أن الليدي كانت تتمتع بعلاقات جيدة مع الوالي سليمان باشا وصفت بأنها "رفيعة المستوى" فعندما زارته في قصره استقبلها الوالي استقبالاً فخماً وأهداها حصاناً رمادياً. بوردو، المصدر السابق، ص97؛ Travels of Lady Hester Stanhope,forming the completion of her memoirs(London,1946) vol. 3,p. 334-337.

(3) خمّار، المصدر السابق، د. ص.

يؤشر على خطورة دورها في زرع بذور الانقسام الطائفي وإشعال الفتنة بين اللبنانيين على أمل أن تكون لها الزعامة السياسية في المنطقة[1].

الخاتمة

تعد تجربة الليدي ستانهوب في الشرق من التجارب الجريئة والشيّقة المنطوية على كثير من التحدي والتأثير، كانت تستقبل في منزلها الضيوف والرحالة والسواح منهم الشاعر والسياسي المعروف فرانسوا لامارتين عام 1832م الذي توقع لها أن تؤسس إمبراطورية في الشرق وتصبح ملكة على عرش القدس.

كان لرحلاتها واستقبالها للضيوف دافع أن تنفق كل ثرواتها حتى وقعت تحت طائلة الدَين، وفي عام 1838م، قرر رئيس الوزراء البريطاني آنذاك بالمرستون قطع راتبها التقاعدي وتخصيصه لتسديد ديونها المتراكمة.

---

(1) من المثير أن جثمانها كان محاطاً بأربع شجيرات زيتون. وكان المارة يخشون قطف حبات الزيتون من هذه الشجيرات، لانه بحسب البعض أنه من يحاول ذلك كان يصاب بأمراض معوية مميتة! – كما يروى – وأصبحت شجيرات الزيتون هذه تعرف بأنها الشجيرات المصابة بـ"داء الست". خمّار، المصدر السابق، د. ص.

عانت الليدي ستانهوب كثيراً في نهاية حياتها بعد ان تخلت الحكومة الريطانية عن دعمها فأخذت تنتابها لحظات من جنون مفرط، وكان يكفي أن تذكر اسم بلدها "انكلترا" كي تفقد عقلها وتجحظ عيناها وتتصلب شفتاها، إذ باتت تنظر إلى بريطانيا بأنها البلد الذي لم يمنحها التكريم الذي تستحق وستعرف هي كيف تذله عندما تخضع الشرق كله لإرادتها.

عاشت الليدي ستانهوب في قصرها في بلدة جون تنتظر اكتمال النبوءة التي كانت تعتقد بها وهي أن تصبح ملكة على عرش بيت المقدس، في دلالة رمزية تحاكي بها فترة العصور الصليبية، ولكن هذه النبوءة بقيت دون أن يتحقق منها شيء رغم كل ما بذلته في هذا السبيل من جهد ومال.

كانت الليدي ستانهوب تحلم بان تؤلف جمعية أدبية في الشرق تضم أدباء وعلماء وفنانين، تدعوهم لزيارة الشرق والتجول فيه تحت رعايتها بعدما نجحت في تكوين علاقات واسعة مع حكام المنطقة على أمل تأسيس معهد على غرار المعهد الذي أسسه بونابرت في مصر وان تكون رئيسته.

توفيت الليدي ستانهوب في 23 حزيران/ يونيو 1839م فقيرة. وفي عام 1911م شيد رئيس دير المخلص ضريحاً لها على غير رضى من ممثلي بريطانيا. وفي عام 1988م تسببت أحداث الحرب الأهلية اللبنانية إلى نبش قبرها(الذي كان يعتقد انه كان مليئاً بالذهب حسب الإشاعات)، فعمد أهل بلدة جون إلى جمع رفاتها، وتسليمه للسفارة البريطانية، التي بدورها أعادت دفنها في المقر الصيفي في بلدة عبيه. ومع اضطرار السفارة لبيع المنزل كان لزماً إيجاد مكان آخر للقبر، فتم القرار بحرق ما تبقى من رفاتها بعد الحصول على موافقة عائلة ستانهوب.

Political Activity of Lady Hester Stanhope in Syria 1810-1839 A.D

Mahmood S.Sa'eed, Ph.D

Abstract

This research attempts to highlight about English Lady lived in the East about twenty nine years in search for effective political role.

Lady Hester Stanhope played a role in the imperialism division plans in the Arab East

The aim of this research is exposure about the historical important to political activity of Lady H. Stanhope in Syria , especially Mount of Lebanon.

The research was divided in to three sides; first deals with Lady H. Stanhope rise and her political creating. Second tackles her journey and political activity in the East. Third deals with settling in Mount of Lebanon and her activity there.